دورالآخر في تشكيل الحوار الحضاري من خلال رو اية السموم لعلي عبيد

The Role of the Other in Shaping the Civilizational Dialogue Through Ali abid's Novel "simoom"

عمارة زواري فرحات [1]*، ليلى بن عائشة [2]

[1] جامعة سطيف 2، (الجزائر)، am.zouariferhat@univ-setif2.dz

[2] جامعة سطيف 2، (الجزائر)، leilabenaicha282@gmail.com

مخبر الترجمة والدراسات المقارنة في الفنون والأدب

تاريخ الإيداع: 2022/12/05 **تاريخ المراجعة**: 2023/02/27 **تاريخ النشر**: 2023/06/30

ملخص:

جاءت مقولة الحوار بين الحضارات، كرد فعل على مصطلح "الصراع بين الحضارات"، فقد جاد كثير من الكتاب العرب-ومن بينهم علي عبيد- على التجديد في صياغة الآخر المثالي الذي عكس النظرة المتوارثة التي خلفها الصراع الحضاري حول هذا الآخر، على أنه نقيض أو عدو، وهذا ما سعت إليه رواية السموم لطرحه وقامت بكشف الستار لمرحلة جديدة، قائمة على أحقية امتلاك هوية الذات وزعزعة كل مركزية ثقافية كانت أم حضارية.

الكلمات المفتاحية: الأنا والأخر، الحوار الحضاري، صورة الأخر، رواية ريح السموم.

Abstract:

The saying of dialogue among civilizations was a reaction to the term "conflicts among civilizations", Many Arab writers - Ali Abid among them - renew the formulation of the perfect other that reflected the outlook or the legacy of the civilizational conflict over this other, as a contradiction or enemy, the Novel "simoon" seeks to roll out and unveiled a new phase based on eligibility the one's own identity and to destabilize every cultural and civilized centrality.

***Key words**:dialogue civilizations, conflicts civilizations, image of the other,The self and the other.*

تقديم:

يعتبر مفهوم الآخر من بين أهم القضايا الفكريّة والفلسفيّة والأدبية التي شغلت الكثير من الكتاّب والمفكرين، وتأتي أهميّة هذا الآخر من خلال دراسة سمته الجوهريّة التي تحدّد الذّات مما يجعل الآخر مختلفا عنها، ولهذا لا يمكن معرفة الآخر بمعزلٍ عن الأنا، فكلّما تخلّى الإنسان عن أنانيّته كلّما اقترب أكثر من الآخر وفتح المجال للحوار مع هذا الأجنبي.

* المؤلف المراسل.

وعلى الرّغم من أنَّ هنالك من يبثّ الكراهيّة ويقطع كل جسر يمتدّ إلى هذا الآخر بحكم وجود أحكام مسبقة، أو يراه فيه مستعمرا جديدا، فإنّ هنالك طرف آخر ينادي بالتّفاهم والحوار بين الحضارات بدلاً من الصِّراع بينها.

ولقد لجأ عدد من الكتّاب المعاصرين إلى المواضيع الأكثر انفتاحاً، وتمكّنوا من أنّ يخرجوا بالوعي من محيط الانغلاق والعزلة إلى التّعامل مع الآخر بإنصاف وعدل وفتح أبواب النّقاش والحوار معه.

إنّ الواقع الحضاري المعاصر يلزم جميع الدّيانات والحضارات بترسيخ ثقافة الحوار، التي يمكن بدورها حلّ النّزاعات والصّراعات وإقامة التّقارب بين الأطراف المتنافرة، فنحن اليوم أكثر احتياجاً من ذي قبل إلى تقبل الآخر وإلى فهم تفكيره، من أجل إزالة الشّك وسوء التّفاهم والتّوتر الموجود بين المستعمِر والمستعمَر.

ولهذا سعت الرّواية العربية إلى تجسيد تطلعات وآفاق حضاريّة، أصبح فيها النّص فضاءً لتعدّد الثّقافات وتفاعلها، ووسيلة للكشف عن الذّات وترسيخا للهوية القومية، ومن هذا المنطلق نفهم بأنّ الذّات لا تتناقض بالضرورة مع الآخر.

ولقد قصد المثقفون العرب في تشكيل وبلورة الآخر في أعمالهم الأدبية إلى مجموعة من الطرق، وأهمها حضور الآخر عن طريق السفر أو السياحة ومثاقفته؛ حيث تنوعت هذه الأخيرة إلى أوجه عديدة سعى من خلالها كل كاتب أن يجعل فيها فكرته حول هذا الآخر، ومن بين الرّوايات التي عالجت هذا الأمر رواية السموم " Le simoun" لكاتبها علي عبيد، وعليه يمكن صياغة إشكالية البحث في ضوء الأسئلة التالية:

- ماهي ظروف احتكاك هذا الآخر بالذّات العربية؟، وكيف ساهمت في تشكيل "صورة الآخر" ضمن هذا العمل الرّوائي؟

- ما هو نمط الصّورة التي تحملها الذّات في مخيلتها عن الآخر؟ وهل يمكن تحطيم النّمطية السائدة حول النّظر إلى الآخر؟

هذا ما سنسعى إلى الكشف عنه من خلال هذه المقالة.

1-تحديد مفاهيم:

1-1مفهوم الآخر:

أ- لغة:ورد في قاموس المحيط:" الآخر بفتح الخاء بمعنى غير والجمع بالواو والنّون".[1]

وقد ذكر الآخر في المعجم الوسيط بأنّه " أحد الشّيئين" من جنس واحد يقول: (المتنبّي).

-"ودع كلّ صوت غير صوتي فإنّيأنا الصّائح المحكي والآخر الصّدى".[2]

ب-أما اصطلاحا:

فالآخر في أبسط صوره هو ذلك "المتميز عن الأنا الفردية أو الجماعية، وتكون أسباب هذا التميز ماديّة جسمية، وإمّا عرفيّة أو حضاريّة أو فروق اجتماعية أو طبقية".[3]

ويرى هيديجر أن "الوجود بدون الآخرين هو نفسه صورة الوجود مع الآخرين، بمعنى أن الشعور الفردي لا ينطوي على أيّ انفصال عن عالم الغير، أمّا الآخر من منظور فوكو فإنّه يرى أنه "متعلق بالذّات تعليقاً لا فكاك منه".[4] في حين يرى صلاح صالح في كتابه سرد الآخر أن "الفرد لا يكون آخر حتى بالنّسبة إلى نفسه قبل

مدة قصيرة، ويمكن أن يتحول إلى آخر بعد مدة قصيرة أيضاً، وكل شخص هو آخر بالنسبة لأيّ شخص على وجه الأرض".[5] فقد نجد أن الآخر يحمل معنى الضّدية والنّقيض، ف"كلّ صراع بين إنسان يبتدئ من تموضع كلا الطرفين في حزِب الآخرين، فلا يمكن أنّ يحدث بينهما صراع ما لم يكن كلّ منها آخر بالنسبة لآخر".[6]

ويتناول بحثنا في الواقع قضية الحوار مع الأجنبي، فلا يسعنا إلا أن نبحث عن الصفات الموجودة في هذا الآخر، والتي تحمل معنى التّسامح والمثاقفة والتّجاوز عن الماضي الاستعماري، بما أنّ "الإنسان لا يمكنه العيش مستقلاً بذاته، فهو من دون شّك بحاجة ماسّة إلى إنشاء علاقات مع الآخرين تشعره بالسّكينة والهدوء ويسهّل عليه مرارة العيش".[7]

1-2-جدلية الأنا والآخر:

وإذا نظرنا في جدلية الأنا والآخر نعرف بأنّها قضيةٌ مدّت جذورها عبر التّاريخ، وبالتّالي فهي معادلة حدثت ولا تزال تحدث، وهي ستبقى ما بقي الإنسان على هذا الكون، فقد بُنيت هذه العلاقة على عدَّة أشكال، أبرزها "اختلاف في الفكر واختلاف في الموقع"[8] بصفة عامّة، فهو "اختلاف في الهويّة، بحيث لا تتضح ملامح الهوية من دون لقاء هذا الآخر".[9]

وبحكم أن الكائن البشري اجتماعي بفطرته، ولا يمكن أن يعيش منفرداً بمعزل عن غيره، لأنه يعتبر أحد الطّرفين لكي يتفاعل ويتواصل مع الطّرف الآخر. فإنّ إشكاليّة الأنا والآخر إذا نُوقِشت من فكرة حوار الحضارات فإنّها لن تؤدي بالضّرورة إلى التّصادم والصّراع طالما أن التفاعلي والحوار هو ما يميز طبيعة البشر.

ولقد تضمنت الكثير من الرّوايات ما يؤكد على قيمة حوار الحضارات، وكذا العلاقة الجدليّة بين الأنا والآخر بما تحتويه من "موضوعاتوقضايا شائكة ومسالك، ولنقول بذلك أنّ توجّه جملة من الرّوائيين العرب لمناقشة مثل هذه المواضيع لم تكن فكرياً، ولا ضرباً من الاعترافات الرّوائية، إنّما كان نابعا من عمق إيمان هؤلاء بالرهان الخطير الذي يمكن أن تلعبه الرّواية في معترك السّاحة الثّقافيّة، بل والحضاريّة أيضاً، ولما يمكن أن تحدثه من تأثير على وجهات النّظر والتّطورات الجمعيّة بجمهورها".[10]

1-3-**حوار الحضارات:** يعد مفهوم الحوار من المفاهيم" حديثة التّداول في الأدب السّياسي والثّقافي، إذ لم يرد في القاموس الدّولي، كما لم توجد له صلة في ميثاق الأمم المتحدة، ولا في الإعلان العالمي لحقوق الإنسان، مما يشير إلى أنّ الحوار مفهوم سياسي فكري ثقافي حضاري، أما مصطلح "حوار الحضارات" فهو من الأفكار والمفاهيم الأساسية التي انتهى بها القرن العشرون الميلادي، إذ أصبح يحتل مكان الصدارة في قائمة الاهتمامات لدى العلماء والنّخب الفكريّة والسّياسيّة، ومراكز البحوث المختلفة، والمؤسسات الدّولية الثّقافيّة والسّياسيّة، وأيضا الاقتصاديّة".[11]

وأمّا الحوار الحضاري في معناه العام فهو" التّواصل بين الأمم والشّعوب، وهو التّشاور والتّفاعل الثّقافي بين كل الأمم، والقدرة على التّكيف مع الأفكار المخالفة والتّعامل مع الآراء الثّقافيّة والدّينيّة".[12] وتتجلّى أهمية الحوار من خلال الأهداف التي يُرمى إليها، ومن بينها، "إذ لا يصح الحوار هدفًا دائماً بين أفراد الإنسانيّة، كأنه مسار للحركة الثقافية للبشر، وطريقة ذلك التبادل الثقافي الحر بين جميع الأطراف، وتبادل الزيارة بين المثقفين وعرض أفكارهم كما في الأمر وتشجيع العمل الثّقافي المشترك بين جميع المتحاورين، وتأليف الكتب بلسان كل

أطراف الحوار، والسعي المتبادل لتصحيح صورة الآخر في بيئة كل طرف، بل يُستثمر الحوار الهادف في التعاون الاجتماعي الفعال، إذ لا يمكن موضوعيًّا التأسيس للحوار من أجل الحوار لأنّه هدر للطاقات، فالحوار يهدف في أصل وضعه إلى تغيير الصورة المشوهة عن الآخر في فكرك، بحيث يؤسّس للفهم الموضوعي للآخر، وبذلك تحرّر مساحة إضافيّة في عقول وقلوب المتحاورين للجهة الأخرى في الأمور العلميّة وغير العلمية، من خلال هذا المسعى توطئ النّفوس أتباع كل فكرة لقبول رؤى الآخر".[13]

2-دورالأخر المثقف في تشكيل عنصر الحوار من خلال رو اية "السّموم":

أ-صورة الآخر المثقف في رو اية "السّموم":

تتمثل صورة الآخر في رواية السموم في شخصيّة كورين شارو Corinne charreau، الفتاة التي تجسّد العفويّة والصّفاء والوقار، فهي شخصيّة استثنائيّة في سحرها وجمالها وفطنتها وثقافتها، فقد وصفها الكاتب كأنّها من الملائكة كما في هذا المقطع:

« Par sa beauté angélique, elle attirait la convoitise de tout le personnel de l'hôpital, elle est svelte et élancée, et ses heureux blonds coupés lui donnaient l'allure d'un grand garçon ... ».[14] فهي تجلب بسبب جمالها الفاتن كل شخص في المستشفى، فهي رشيقة وأنيقة، وتملك شعراً قصيراً مقصوصًا كأنّها طفل كبيير...

وفي المقطع التالي ينقل لنا الرّوائي جانبا آخرا عن هذا الآخر المتمثّل في حبّه للحرية ومشاركة الآخرين، ونبذه للوحدة والانقطاع عمن حوله.

« Mais la jeune femme ne supportait pas le cloisonnement, la solitude, le silence, la monotonie et l'antienne quotidienne ».[15]

«لكن المرأة الشابة لا ترضىبالانقطاع عن الأخر ولا الوحدة ولا السكوت ولا حتى رتابة العبادة المتواصلة»

فقد اختارت هذه الممرضة الرّومية عند أول وصولها إلى الجزائر أن تعمل بمستشفى الوادي مع زميلاتها الفرنسيات.

« Corinne Charreau est une infirmière de l'école paramédical, Née à Montret en Saône-et-Loire, elle aurait choisi El-oued depuis son premier contact avec l'Algérie ».[16]

ولدت كورين شارو في مونتريات في إقليم سان لوار، فقد اختارت مستشفى الوادي عند أول وصولها إلى الجزائر، فقد سحرتها مناظر الواحات وغروب الشّمس، وأُعْجِبت كورين بطريقة تعامل الأهالي مع الأجانب، والتي أرادها الكاتب أن تكون إنسانيّة في علاقتها مع الذّات العربية، ليظهر من خلال ذلك مواضع التلاقي بين القطبين، مؤكداً على حتمية مدّ جسور الحوار لتّحقيق التّلاقي، مستظّهراً جواً من التّسامح بدلاً من لغة العنف والاستغلال واحترام لغة الآخر وتعلمها إن استدعى الأمر ذلك بدلاً من تهميشها واستغرابها.

قد نظر الآخر بإعجاب إلى الشّاب العربي البطل معراج "Moradj" في طريقة حديثه وبما يتميز به من أخلاق عاليّة مع الآخرين، فاستجاب إلى التّفاعل مع الذّات، فقد جعل الكاتب شخصيّة معراج البطل تلعب دور

صورة العربي المثقف والشّاب المثالي والإيجابي مع الآخرين، فهو يعرف لغة كورين، ويشتغل مرشدا سياحيا، إضافة إلى مهنة التعليم يحمل حبا عميقاً لبلاده وتقاليد وقيم أجدادهـ

لكن السؤال الذي يمكن أن نطرحه، لماذا اختارت كورين معراج صديقاً في الغربة وأنيساً في الوحشة؟ ولعلّ الإجابة تكمن عندما خرجت كورين في إحدى الأيام في منتصف الليل، وكانت ليلة هادئة ثم جلست منفردة تنتظر مجيئ معراج، وأثناء ذلك وجّهت بصرها إلى السّماء إذ تنظر في تأمّل عميق إلى النجم القطبي الذي يذكرها بالوطن، كأنه إنزاح من أوروبا إلى كبد صحراء إفريقيا، وأثناء ذلك تذكرت وجه صديقها في أيام الطّفولة، وهو الفتى جرار الذي كان يرافقها عند حافة النّهر، وبالصّدفة رأى جرار طفلا صغيراً يسقط في النّهر فأسرع ليدركه فأدركه النّهر، فتذكّرها لوجه جرار يذكرها بوجه معراج لوجود تشابه كبير بينهما في الشكل والطباع.

« La jeune femme voguait dans les ténèbres de la rêverie qui lui substituait l'image de Gérard à celle de Morad, car en somme tout se confondait en eux, la taille, le comportement, les qualités physiques et morale... »[17]

«شرد تفكير الشّابّة في ظلام الخيال الذي أوحى لها من صورة معراج صورة جرار، لأنّهما في العموم يتشابهان في كل شيء، في الحجم والسّلوك والصّفات الجسديّة والأخلاقيّة».

ب-مظاهر الالتقاء الثّقافي في رواية "السُّموم":

حاول علي عبيد من خلال هذه الرّواية أن يكسر الصورة النّمطية المعهودة لصورة الآخر التي تعوّد القارئ أن يجدها في كثير من النّصوص، والتي تتناول الصّراع بين الشّرق والغرب، وترى الآخر عدوّاً مستغلاً انتهازياً.

أما في رواية السّموم فقصد الكاتب إلى تشكيل صورة الآخر الصَّديق المثقّف، والذي يمكن للذّات العربية أن تتعايش معه إيجابياً دون أي حواجز، وتكون هذه العلاقة مبنية على رؤية متفتّحة وقائمة على الاحترام والتّشاور والتّحاور، وهذا ما جسده الرّوائي في علاقة كورين مع معراج، وقد شاء الكاتب أن يدخل بطلة الرواية في علاقات كثيرة، وهذا وفقا للصّفات الشّخصية التي تتصف بها كورين، فقد كان أول لقاء لكورين مع البطل معراج في المستشفى، بينما كانت تتفحص المرضى، وكانت تكرر النّظرة بعد النّظرة إلى هذا الشّاب، وقد حاول معراج أن يتعرّف على هذه الشّخصية أكثر فأكثر، ونجح في ذلك وشكرها على اهتمامه به واسعافه، ثم سألها أول سؤال عن إقامتها، ودخل معها في حوار من أجل معرفة تفاصيل أكثر عنها و(عن هذا الآخر).

« - Vous êtes ici à El-oud depuis longtemps ?

-J'ai bouclé les trois années, répondit-elle d'un air rêveur.

- Vous l'avez terminé ce livre ?

- Vous voulez le lire ?

- Nom merci, je l'ai lu ; j'ai même lu la suite, le robinson suisse la femme me put cacher son étonnement... »[18]

«- هل أنتِ هنا في الوادي منذ وقتٍ طويل؟

- تجيب بهيئة متأّملة، مكثت هنا منذ ثلاث سنوات.
- هل انتهيت من قراءة هذا الكتاب؟
- هل تريد أن تقرأه؟
- لا شكراً، قد قرأته، بل قرأت السّلسلة بأكملها إنّها حكاية روبنسون السويسري.

لم تستطع كورين أن تخفي إعجابها لمعراج بهذا الشّأن...»

يُعرف هذا الاحتكاك الحضاري بمفهوم المثاقفة، وهذا ما أكد عليه الكاتب على لسان البطل وهو في حوار مع كورين كما في هذا المقطع:

« La culture n'a pas de patrie, elle est universelle. Elle est l'expression de nos joies et de nos souffrances. La lecture est la passion de sages ».[19]

«لا تملك الثقافة قضية وطنية، بل هي مسألة عالمية، وإنّها وسيلة التّعبير الحقيقي عن سرورنا ومعاناتنا. تعتبر القراءة هواية الحكماء».

ثم استشهد بقول الكاتب والفيلسوف ما رسيل بروست في شأن المطالعة.

« C'est le merveilleux miracle de la communication au sein de la solitude ».[20]

«إنَّها معجزة التّواصل العجيبة في أحضان الوحدة»

يرجع مفهوم المثاقفة -حسب رأي الكاتب- إلى "عملية تحوير ثقافة ما من خلال التّقائها بثقافة أخرى، أيّ يعني عملية انتشار القيّم والمقاييس والأحكام الاجتماعية إلى المجتمعات الأخرى، مع تعرضها لعمليّة التّبدل، التي تجعلها منسجمة مع ظروف وأحوال المجتمعات التي دخلت إليها".[21]

وينقل لنا النّص مشهداً تتجلى فيه القيّم الاجتماعية والثّقافيّة والحضاريّة، حيث يحاول الآخر بسط طرق أخرى غير معهودة عنده سابقا من أجل أن يتواصل مع الأنا "لأنّه بالحوار نخرج من الانفصال إلى التّواصل، ومن الموت إلى الحياة لنعثر على صيغة تجمعنا وتوحدنا وتدفعنا إلى مناطق أكثر إضاءة واكتمالا، أشدُّ روّعة وجمالاً وأعظم قيمة ووجوداً".[22]

لقد أبرز الكاتب هذا المشهد في عدّة محطات من الرّواية، ومثال ذلك عندما طلبت كورين من البطل بأن يسمح لها أن تتعرف على أمه فكان لها ذلك، وفي أثناء زيارتها لهم طلب منها أن تهئ والدتها بأن تقول لفظة مبروك، وهي لفظة عربيّة تدل على التهنئة، وكانت هذه التهنئة بمناسبة المولود الذي رزقت به أخت معراج، فلفظتها كورين بطريقة محرّفة، فلما عرفت أمّه أنّها لا تعرف العربية، فكانت ردّة فعلها أن أخذت بيد الرّومية وقبّلتها.

« Ma mère est une bonne femme des anciens temps, dit Moradj.

- c'est visible, elle a l'air d'être très gentille, j'aurais peut-être l'occasion de mieux la connaitre.

- Dis-lui mabrouk, ça lui fera plaisir.

Corinne prononça un mabrouk déformé que M'tira comprit quand même et pour réponse, elle prit la main de la française et la baissa »[23]

«يقول معراج أمّي من الجيل القديم وهي امرأة رائعة.

- هذا واضح، تبدو لطيفة، هل أحظى بفرصةٍ لكي أتعرف عليها.

- فقولي لها مبروك، فإنّ هذا سيعجبها.

فلمّا نطقت كورين لفظة بصورة محرّفة.

فهمتها امطيرة، وأخذت بيد الفرنسية وقبّلتها».

وفي مقاطع أخرى، نلتمس تأثّر كورين بصحراء الجزائر الشّاسعة، هذا الفضاء الممتد بمفازته وبأسراره قد أغرت الإنسان منذ القديم، فقام بمحاولة فكّ شفراتها، فحاك حولها الأساطير وظلت في خياله المكان المسكون بالعجائب والغرائب، وبالجان والمخلوقات الغريبة، فقد حيّر هذا الفضاء الآخر الغربي الذي لا يكاد يعرف عن الصحراء شيئا، وهذا ما أشار إليه الكاتب من خلال هذا المقطع على لسان كورين.

« C'est vrai, en lisant certains passages de livres sur le Sahara, je me sens aux antipodes, loin du monde et subitement je suis prise de nostalgie ».[24]

«إن هذا حقيقي، لقد قرأت عن بعض الكتب حول الصحراء لبعض الرّحالة، فأحسست بالتّناقضات، كأنّي بعيدة عن العالم، وفجأة أخذني الحنين إلى الوطن»

وعلى الرغم من هذه النّظرة السّلبية حول هذه البيئةّ فقد شكّلت وفقا لرؤية الكاتب دليل الأصالة والتّقاليد "قد ارتبطت بالعصور العربية الأولى التي صنعت نسيجاً حيّا عضوياّ واحداً لسلالة عربية سارت على نمط القبيلة والوحدة وبنت دولة ثابتة من القدم إلى اليوم"[25]، ومن هذا المنطلق فقد بين معراج لكورين ما قام به الأجداد الذين ساروا على هذا النّمط، لإثبات وجودهم على هذه الأرض القاحلة، وهو يسترجع تاريخاً مرَّ عليه الأجداد، والذين استطاعوا التأقلم مع هذه الظروف الصّعبة.

« Corinne, sache ceci, nos ancêtres étaient les maitres ces vastes fiefs, âpres et ardents Ils ont vécu des siècles isolés du monde. Ils ont façonné notre originale et développé nos traditions. Aujourd'hui, nous sommes fiers de notre passé et de notre histoire ».[26]«اعلمي، يا كورين إن أجدادنا كانوا أسياداً هذه الأراضي الحارّة والشرسة وواسعة النّفوذ، كانوا يعيشون منذ قرون في عزلة عن العالم فصنعوا أصولنا وطوّروا تقليدنا اليوم نحن نفتخر بماضينا وتاريخنا».

ج-إشكالية حوار الّثقافات بين التّواصل والانتماء:

ناقشت رواية السموم لعلي عبيد عدّة أسئلة حول الهوية ضمن حوار الحضارات، مستظّهراً ما مدى أزمة انتماء الأمة من جهة، وصعوبات الحوار من جهة أخرى، وحاول الكاتب حلّ شفرات القضية بطريقته الفنيّة، فقد رأى أن الحوار بين الثّقافات بطريقة سليمة وغير استغلالية، هي أفضل وسيلة لضبط هويّة الأمّة وحمايتها من السّموم الخارجية.

ثم إن الغرب وضع لنفسه مبدأ السّيطرة وإخضاع الأقاليم الأخرى لخدمته، لا من أجل الخدمة الإنسانيّة العامّة، بل إنه لن يرضى أن يتعايش مع الحضارات والثّقافات الأخرى، مما تولد عن ذلك كسر في سلم القيّم وثوابتها خاصة "عندما يصبح الاختلاف الثّقافي ذريعة للتّعصب العنصري ولنزعة الّتفوق والامتياز العرقي التي تنشر فكرة عدم التّكافؤ والمساواة بين الثّقافات البشرية، فعندئذ يكتسي المشكل طابعاً آخراً، وتنجم عنه إسقاطات أخلاقيّة وسياسيّة وأنواع من السّلوك المادي المحتقر لثقافة الغير".[27]

ولزعزعة هذه الأطروحات القائمة على التّعارض والمركزيّة الثقافيّة والحضاريّة الأوروبية، فقد سعت الرّواية إلى إعادة تحسين التّاريخ بما يتلاءم مع حوار الحضارات وحوار الأديان، ولهذا أسّست علاقة بين الأنا والآخر الفرنسي من أجّل تجاوز التّعب والكراهية التي زرعها صراع الماضي، بل إن التّوجه الذي يدعو إليه الكاتب هو التّطلع إلى ما أنجزه الآخر في إطار شروط تفرضها الأخوة الإنسانية والمبادئ الحضارية.

« Moradj et ses amis militaient pour torpiller les desseins ourdis par Raoul et ses acolytes. Ils dévoilaient cette frange d'Européens racistes, mais entretenaient par contre des relations d'amitié très étroites avec les autres français qui aimaient le Souf et ses habitants et qui défendaient la liberté et la fraternité entre les peuples... ».[28] «يكافح معراج وأصدقاؤه لنسف مكائد راؤول وأعوانه. فقد كشفوا شر هذه الفئة من الأوروبيين العنصريين، لكن في مقابل ذلك حافظوا على عهدهم مع أصدقائهم الفرنسيين المخلصين الذين يحبون سوف وأهالي سوف، ويدافعون عن الحريّة والأخوّة بين الشّعوب...».

لقد حاربت الرّواية الرّؤية المتشائمة لدى البعض والتي تؤول إلى الانطواء ويحبسون أنفسهم في دائرة مغلقة، ويمنعون من امتلاك حق السّيطرة في الولوج إلى معسكر الآخر، كأنّهم يقولون فمع من نتحاور؟ فهذا الحوار هو حوار الحمل مع الذّئب، كما أن الحوار هو نوع من الاستدراج للمسلمين للتّخلي عن الإسلام وقبول غيره من الأديان الأخرى، ألا يعني هذا التشكيك للمسلمين في دينهم، لذلك فالحوار في نظرهم هو نوع من الاستجابة والخضوع لمكيدة الآخر الذي يشن بالحوار حربا صليبية من نوع جديد، لكن بوسائل أخرى.

برزت هذه الفئة في الرّواية عندما قامت الحكومة الفرنسية بمخيّم صيّفي خاص بأطفال الواحات، وكانت وجهة الرّحلة إلى جنوب فرنسا، حيث عيّن معراج مرشدا في هذه الرّحلة، فمنع بعض الآباء أبنائهم من الانضمام في هذه السّياحة بحجة الخوف من أن يترك الأبناء دينهم وينغمسوا في المسيحية، ولم يثقوا حتى في بني جلدتهم الذين تولوا مسؤولية أبنائهم، مثل معراج، فوصفهم الكاتب بأنّهم متعصبين لا يقيمون للحوار مع الآخر أيّة قيمة ويرونه خديعة وتحايلا، حيث اعتبروه دعوة من قبل المسيحيين المستعمرين.

« Le camp de vacances des enfants des oasis à Foix dans l'Ariège était animé et les petits sahariens qui se rendaient pour la première fois au pays des Rouama y passaient un agréable séjour meublé d'excursions, de jeux, de loisirs et de chants. Tant pis pour ceux qui étaient empêchés par des parents réticents ou trop fanatiques qui craignaient voir leurs enfants travestis chez les Kafer ».[29]

«كان مخيّم إجازة أطفال الواحات في بلدة فوا الموجودة في إقليم أريبج بفرنسا مفعماً بالنّشاط. واستعد أطفال الصّحراء الصّغار لأول مرة لذهاب إلى بلاد الرُّوامة، حيث سيمضون فيها أوقات ممتعة، متضمنة هذه الرّحلة على خرجات وألعاب وتسليّة وأغاني. بينما هناك أطفال آخرون قد مُنِعوا من طرف أباءهم المترددين المتشددين، من الذهاب في هذه السيّاحة خشية أن يرون أولادهم في ديانة الكفار...».

فقد يكون من البديهي أن يأخذ الحوار بين الثقافات مجرى أفضل ليحصل بذلك التّبادل فيما بين الأمم والتّفاعل بين الأنا والآخر القائم على الأخذ والعطاء، لصالح الإنسانيّة جمعاء، ولكن يبقى التّحذير من الانغماس في ثقافة الآخر وتقاليده في كلَّ شيء، والتي تعود سلبا على خصوصيات الذّات بحيث يكون قد "تخلى عن الهوية الثّقافية المتوارثة أو التّنكر لها، هو بالنّسبة إلى أيَّ أمّةٍ من الأمم هو نوع من الانتحار الحضاري".[30]

ومن هذا المنطق ظهرت فئة من الشّباب من جيل بطل الرّواية، أشخاص غرباء تتشظّى ذواتهم ليعيشوا الهزيمة والانشطار لتقليدهم الغرب في كل شيء، حتّى في طريقة ارتداء نظارات جاك شارييه التي كانت موضة في ذلك الزّمان.

« Les jeunes de sa génération se travestissaient derrière les lunettes Jacques charrier et un baragouin qui ressemblait à du français... ».[31]

«يرتدي شباب من جيله نظارات جاك شارييه ويبدو أسلوب كلامهم مثل الفرنسيين».

النتائج:

- يعتبر الآخر المثقّف حسب رؤية الكاتب هو ذلك الذي يحمل قيّم ومبادئ إنسانيّة، ويبحث عن جانب الحوار الإيجابي الفعَّال، الذي يبني مصلحة الأمم ويحفظ كرامتها ويبتعد عن النّظرة العنصرية والفكر التّعصبي.

- إن الحوار أسلوب حضاري هدفه إنشاء علاقات ودّية وإقامة سبل التّعايش والالتقاء مع احترام الخصوصيات، ولم يكن هدفه القضاء على نقاط الاختلاف بين الصعوبات والتّنوع، فلا يمكن لثّقافات أن تتوحّد وتنصهر في هويّة واحدة، فلا وحدة للعالم.

- فقد انتصرت الرّواية ضمن الطّرح الإنساني لتعزيز وتكريس قيّمة التّسامح، من شأنها تضميد جراح الماضي، والمساعدة على المضيّ قدماً في بناء الأخوّة، لعل بيت القصيد فيما ذهبت إليه الرّواية، هو دعوة إلى مرحلة جديدة من العلاقة مع تاريخ الأمم من أجل تحقيق السّلام.

الخاتمة:

بناء على ما سبق نخلص إلى أن الكاتب حاول أن يقدم لنا صورة عن التّواصل الإيجابي بين الأنا والآخر بعيداً عن السّلبية والعنصرية، فالواقع الحضاري الرّاهن يوضح أنّه لا مناص أمام الأمم الإنسانيّة من التّعاون والتآخي، فمتى نحقق مشروعا حضاري يخلو من التّعقيد وفق الأسس الفكريّة السلبيّة، فإنّه يحق لنا التّحدث عن الأصالة والخصوصية والحديث عن الوحدة بين الشّعوب بخطوات فكريّة عقلانيّة وإنسانيّة.

---

[1]- الفيروز أبادي، قاموس المحيط، الهيئة العامّة للمكاتب، دب، ج1، ط3، 1980م، ص360.

[2]- إبراهيم مصطفى وآخرون، المعجم الوسيط، ج1، المكتبة الإسلامية للطباعة والنشر والتوزيع، تركيا، ط2، 1972 (مادة الآخر)، ص8.

[3]- حسن شحاته، الذّات والآخر في الشّرق والغرب (صورة ودلالات وإشكاليّات)، دار العالم العربي، القاهرة، مصر، ط1، 2008، ص17.

[4]- سعد سامي محمد، الأنا والآخر في المعلقات العشر، رسالة ماجستير، إشراف: حنان محمد عبد الجليل، قسم اللّغة العربية وآدابها، جامعة البصرة العراق، 2012م، ص04.

[5]- صلاح صالح، سرد الآخر، الأنا والآخر عبر اللّغة السّردية، المركز الثّقافي العربي، دار البيضاء، ط1، 2003م، ص10.

[6]- سعد فهد الذويخ، صورة الآخر في الشعر العربي، عالم الكتب الحديث للنّشر، عمّان، الأردن، ط1، 2009م، ص11.

[7]- ميلاد حنا، قبول الأخر. فكر واقتناع وممارسة، دار الشّروق القاهرة، مصر، ط1، 1998م، ص90.

[8]-خالد الدّاخيل، الأنا والآخر العربي هو الذي يتعرّض للنّفي مثلا عن الموقع الإلكتروني،. www.kuionuer.com اطلع عليه بتاريخ .2022 -06-06

[9]- ماجدة حمودة، صورة الآخر في التراث العربي، الدّار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، لبنان، ط1، 2010، ص18.

[10]- سميّة جديلي، حوار الحضارات وإشكاليّة الأنا والآخر، إشراف: سليمة لوكام، رسالة دكتوراه علوم، قسم اللّغة العربية وآدابها، جامعة تبسة الجزائر، 2018/2017م، ص84.

[11]- أحمد جاسم، إبراهيم الشّمري، مشروع الحوار الحضاري، أبعاده، ومستقبله، مجلة مركز بابل للدّراسات الإنسانيّة، جامعة بابل، الإصدار مركز بابل للدّراسات الحضاريّة والتّاريخيّة، العدد4، المجلد6، بابل، العراق، 2016، ص119-120.

[12]- هارون نصيّرة، عوائق الحوار الحضاري العربي الغربي، المجلة الإنسانيّة، قسم الفلسفة، المدرسة العليا، العدد 47، جامعة قسنطينة الجزائر، جوان 2017، ص445.

[13]- محمد سيف الإسلام بوقلاقة، حوار الحضارات في منظور الثّقافة الإسّلامية، مجلة مقاربات فلسفية، كلية الآداب، جامعة عنابة، المجلد08/العدد01، عنّابة، الجزائر، 2021، ص97.

[14] - Ali Abid, Le simoun, éd Sakhri, Algérie, 2013, p42.

[15]- Ibid, p42.

[16] - Ibid, p42.

[17]-1 Ibid, p50.

[18]- Ibid,p10.

[19]- Ibid.,p 40

[20]- Ibid, p40.

[21] نور الدين الزمام، عولمة الثقافة، من إصدارات رابطة الفكر والإبداع مطبعة مزوار، الوادي، 2004، ص73.

[22]- إبراهيم ماني، أوراق في النقد الأدبي، دار الشهاب للطباعة والنشر، ط1، الجزائر، 1985، ص147.

[23]- Le simoun, p38.

[24]- Ibid, p47.

[25]- محمد صالح خرفي، جماليات المكان في الشعر الجزائري المعاصر، دكتوراه علوم، جامعة منتوري، قسنطينة الجزائر، 2006/2005م، ص91.

[26]- Le simoun, p47.

[27]- عبد الرزاق الداوي، موت هويّة الإنسان في الخطاب الفلسفي المعاصر، دار الطّليعة، بيروت- لبنان، ط1، 2012، ص95-96.

[28]- Le simoun, p25.

[29]- Ibid, p56.

[30]- محمد سيلا، مدارات الحداثة، الشبكة العربية للأبحاث والنشر بيروت، ط1، 2009م، ص157.

[31] - Le simoun, P41.